

المملكة العربية السعودية

النادي الأدبي بالقصيم

موسم محاضرات عام ١٤٠٦ / ١٤٠٧ هـ

مكتبة

أ.هـ. محمد عبد الحميد عيسى

حمراء غرناطة

وتطورها

بعد ضياع الاندلس

الدكتور

محمد عبد الحميد عيسى رector

استاذ التاريخ الاسلامي المشارك

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

بالقصيم

مكتبة

حوالي مئة سنوات

تتمثل هذه المقالة بين جوانبي من تلك الحوادث ، أناقشها في جيب عيسى

فكري ، وأطورها في خيالي يوما بعد يوم ، لكنني أشفق على نفسي حين أملك القلم
لتسجيل خواطري عنها ، دون أن أدري لماذا التردد كدوني أن أتقدم لصياغة ما في
نفسي من أفكار .

ولعل السبب في ذلك ، هو خشيتي من صدمة يحسها القارئ العربي مثل
تلك الصدمة التي أحسنا بها ذات ليلة في مدريد ، حين سمعنا ، مجموعة من
شباب الدارسين العرب هناك ومن الأساتذة ورجال السلك السياسي ، نستمع إلى
عبيد المستشرقين الأسبان ، وأشهر علماءهم الدكتور أميليو غارثيا غوميث حين ألقى
محاضرته الثالثة والأخيرة في مؤسسة " خوان مارش " عن غرناطة خلال عام ١٩٧٩م .

كانت القاعات - تلك الليلة - خاصة بالعلماء والأدباء والمثقفين من الكهول
والشبان ، بصورة لم أرها في حياتي في محاضرة أخرى ، حتى أن المحاضرة كانت
تنقل إلى الجمهور عبر شاشات التليفزيون في دائرة مخلقة ، وكان الحشد كبيرا بما
لا يمكن حصره أو تقديره .

وللدكتور غارثيا غوميث أسلوبه الشعري المؤثر الذي ينفذ إلى القلوب والمسامح
ويزداد التأثير وقعا على القلوب حين يتناول الصراع غير المتكافئ بين العرب والإسبان
حتى يحتلم المسلمون في غرناطة ، ويدخل الإسبان قصور الحمراء دخول الظانفين
المنتصرين ، ويحكم الصمت على الجميع ، وهو يتحدث بعد ذلك عن الحمراء وجمالها
وروعة قصورها ، إلى أن يصل إلى القول بأن الفضل في بقاء ما نراه الآن من عظمة تلك
القصور ، إنما يرجع إلى تلك الأنامل الإسبانية الرشيقة التي تعمل في صمت وبراعة
على استبدال الأجزاء المنهارة ، وترميمها ، وإعادة بناؤها إلى صورتها الأصلية بمهارة
وفن عريقين .

واستطرد في الحديث ، حتى خلت أن الحمراء غير الحمراء ، وأن التاريخ
غير التاريخ .

أقول ليلتها كانت غستا كبيرة ، وآلامنا النفسية أشد وقعا ، وليس فقط من
أجل تلك الكلمات ، وإنما لرنة الفرح والخيلاء التي كان يتحدث بها الإسبان من
غرناطة ، تلك الدولة العربية خاتمة التاريخ الاندلسي ، وكيف أنها لم تكن أكبر

من مجرد مدينة افريقية حكم عليها بالغناء ، دون أن يكون في امكانها رد القضاء ،
ولم يكن الأمر كذلك في حقيقة الأمر ، ولنلق نظرة سريعة .

غرناطة تاريخيا :

هي " ربانة التاريخ " ، مدينة قديمة تعاقب على وجودها الرومان والقوط
وتتمتع بموقع ممتاز في واد عميق شمال غرب جبال الثلج ، كما تطل على نهر شنيسل
المتفرع من نهر الوادي للكبير ، كما يخترقها فرع آخر من هذا النهر يسمى حذرة
وكان النهران يقومان بالماء ، ومن ثم أينعت ضفافهما بالخضرة ، ونجت بالحدائق
والبساتين ، كما أنها تشرف من جنوبها الغربى على بساط شاسع أخضر ، يعبر في
التاريخ باسم " مرج غرناطة " .

عاشت غرناطة في العصر الاسلامي أبجد أيامها ، وكانت اقليما يانعا
أحبه العرب والمسلمون وأقاموا به حتى أصبحت على أيامهم جنة من جنات الدنيا
تغص بالنباض والبساتين الياض ، والتي بلغت ، على حد قول مؤرخ غرناطة
خالد الصيت ذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب حوالي المائة ، بالإضافة
الى ما يقرب من ثلثمائة قرية عامرة تابعة لها . وقال ابن الخطيب يصف جمالها :

بلد تحف به الرياض كأنه	وجه جميل والرياض غداره
وكانا واديه معصم غسادة	ومن الجور المحكات سواره

لمعبت غرناطة دورا هاما في التاريخ الأندلسي ، وقامت بها احدى ممالك
الطوائف بعد سقوط الخلافة الأندلسية وحكمتها أسرة بنى زيرى البربرية ، وكانت
اولى ممالك الأندلس خضوعا للمرابطين وترك لنا أميرها عبد الله واحدة من أجمل
ما كتب في الترجمة الذاتية ، حيث ترك لنا مذكراته ، دأبنا حياته الشخصية وتاريخ
غرناطة بأسلوب أدبي جميل .

وخضعت غرناطة للمرابطين ، وللموحدين من بعدهم ، وعاشت أياما حلوة
تاريخا وحضارة في ظل هاتين الأسرتين .

ولم يكن أحد يدري أن التاريخ يحفظ لغرناطة بدور بالغ الأهمية ، وأنها
سوف تسطر على جبين القدر أروع صفحات البطولة ، وأجد صفحات الخلود .

لم يكن أحد يدري أو يستطيع أن يجمع في أفكاره في تلك الآونة من النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ، وقلاع الأندلس الهامة ومدنه الغريقة تنهار في واحدة بعد الأخرى لتسقط في قبضة حركة الاسترداد الإسبانية التي بلغت أوجها وتمتها منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادي ، حين تمكنت من الانتصار الحاسم على قوات الموحدين في معركة العقاب التي وقعت في عام ١٢١٢ م وكانت ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولإسبانيا الإسلامية ، وعاد شيخ الفناء يخيم على الأفق وليس فيها من ذرا ، حتى سرى ذلك في كتابات العصر وشعره ، ونهارت كما قلت قلاع الأندلس ، ومدنه الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت جزر البليار عام ١٢٢٦ م وقربطبة ١٢٣٦ م ، وملنسية ١٢٣٨ م ، ومرسية ١٢٤٣ م ، ودانية ١٢٤٤ م وأوريولسية ١٢٤٥ م ، وشاطبة ١٢٤٦ م ، وجيان ١٢٤٦ م وأشبيلية ١٢٤٨ م ، وفي نفس الوقت تساقطت مدن غرب الأندلس الواحدة بعد الأخرى ، ولم يأت منتصف هذا القرن حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها مرقد سقطت في يد إسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية في الأندلس سوى بضعة ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبية .

نعم ، لم يكن أحد يستطيع أن يجمع في أفكاره في هذا الوقت إلى أبعد من هذا المصير القاسي ، وتركز كل التفكير في شيخ الفناء الذي يطل بوجهه الكالح على الأمة الإسلامية هناك ، ويطاف بالأندلسيين ، ربح التوجس والخوف والفرع وعاد النذير يهيب بالمسلمين ، أن يخادروا ذلك الوطن الخطر .

أكرر القول ، لم يكن أحد يدري بأن التاريخ قد احتفظ لغرناطة بدور جدهد حيث تنهض هذه المدينة من وسط الركام والأشلاء لترفع راية خفاقة يلبط اليها الهاربون والشاردون ، وتصبح ملاذا وحسنا لمواجهة هذا السقوط السريع ، وتجع غرناطة فس أن تند في عردولة السلام والمسلمين على أرض إسبانيا لأكثر من مائتين وخمسين عاما بعد ذلك .

كيف ذلك ؟ انها معجزة التاريخ ، أو ان شئت ملهاته التي لا تجد تفسيرها ، وليس هنا مجال ذكر تاريخ هذه المملكة العظيمة التي كان سقوطها في أيدي الإسبان عام ١٤٩٢ م نهاية لحكم المسلمين في الأندلس ، وهذا الصراع رهيب دار على مدار ثمانية قرون من الزمان .

وأراد التاريخ أن يكتفى غرناطة على هذا الدور البطولي الرائع ، فأهداها
الخلود الدائم ، وحفظ لها درة من دور الآثار الإسلامية الخالدة ، حفظ لها قصر
الحمراء الذي أصبح كعبة يحج إليها الملايين من البشر كل عام ، ليحكى لهم قصة
أمة بنت ودافعت وهزمت ورحلت وخلقت هناك تاريخا وشاهدا .

الحمراء تاريخيا :

يرجع قيام الحمراء الى القرن الرابع الهجرى ، حيث يشار فى المصادر الى
وجود قلعة هناك تسمى " قلعة الحمراء " بنيت فوق الهضبة الواقعة على الضفة نهر
حدرة اليسرى ، كما كانت هذه القلعة مقرا لأسرة بنى زيرى خلال فترة حكمهم لغرناطة .

ولما غلب محمد بن الأحمر النصرى على غرناطة ابتداء من عام ١٢٣٨ م اتخذ
مركزه فى تلك القلعة ، وبدأ فى تأسيس قصره بداخلها ومن ثم أصبحت هذه القلعة
وهذا القصر مقرا للحكم ، وقاعدة لإدارة مملكة غرناطة على مدى أكثر من قرنين من الزمان .

وفى أواخر القرن السابع الهجرى ، أنشأ محمد بن الأحمر ، تانى سلاطين غرناطة
الملقب بالغالب بالله ، الحصن الجديد ، والقصر الملكى ، وأقام ابنه محمد مسجد
القلعة ، وشو من الأجزاء التى أزيلت وأقيم بدلا منه كنيسة القديسة مريم ، ثم جاء
السلطان أبو الوليد أسماعيل فزاد فى القصر وتجييله .

أما أعظم انشاءات قصر الحمراء فأنها ترجع للملكين الكبيرين يوسف الأول وابنه
محمد الخامس المعروف بالنسنى بالله . حيث قاما ببناء معظم الأجنحة والأبهاء
الملوكية التى ما زالت تسبح على قصر الحمراء روضها وسهائلا كما أنهما هما اللذان أعدا
على الحمراء روائع الفن والزخرف .

وتقع الحمراء فوق هضبة عالية تشرف على غرناطة ، وهى غارقة وسط بحار من
الأشجار تكاد تحجبها عن أبصار الفضوليين من أهل المدينة والساحين ، لكنها من
موقعها ترتفع كثيرا عن قمم هذه الأشجار ، وتطل على المدينة من عليائها وكبرياتها .

يبلغ طول الحمراء حوالى ٧٣٦ مترا ، أما عرضها فهو نحو مائتى متر ومحيط
بها سور ضخيم ما زالت منه أجزاء كبيرة حتى اليوم شاهدة على مدى عظمتها وتأنقته .

ويتخلل هذا السور عدة أبراج يبنى معظمها الى اليوم ، ودمرت قوات نابليون عند
انسحابها من هناك بعض أجزاءها . وأهم أبراج السور الباقية الى اليوم : برج
الحراسة أو الشعة الساهرة ، ويقع في الطرف الغربي من الهضبة ، و برج قصاروش
الواقع فوق قاعة السفراء ، و برج التزين ، و برج العقائل ، و برج الآكام ، و برج الآهيرة
و برج الأميرات ، و برج الماء ، و برج الرؤوس . . . الخ .
و معظم هذه الأسماء محدثة وضعها الاسبان بعد ذلك ، ويدور حول تسميتها كثير
من الروايات والأساطير التي تخلب لب الناس ويستمتع اليها السائحون بشغف شديد .

وللفصل عدة أبواب منها باب الشريعة ، و باب الآبار و باب السلاح ، وهناك
باب يطلق عليه الاسبان اسم " باب التهيؤ " .

وهناك في الطرف الغربي من الهضبة ، قلعة قديمة تسمى " حصن الأبراج
الحصراء " .

و يقع هضبة الحصراء ذو جبال نادر ، فهي تشرف من الشمال والغرب على
مدينة غرناطة ، وعلى مرجها الشهير ، وتشرف من الشرق والجنوب على جبال الثلج
السرونة باسم سييرا نيفادا ، وهي جبال لا يذوب عنها الجليد أبداً ، كما أن الهضبة
تطل من عليها على نهر حدة وعلى حى البيازين .

أهم أقسام الحصراء :

تتقاسم الحصراء ثوبا أنيقا من النبل والكبرياء ، يجعلها شامخة رغم مسحة الأسى
والألم التي تكسو جدرانها وروح الحزن المخيفة على أبنائها وناظراتها ، لكنها مع
ذلك ، أجل الآثار الإسلامية على الإطلاق ، بل وأكثرها ترفيها ومهجة لعين الزائر
وكم يحجب الانسان لرشاقة بنيانها ، وخفة روحها ، وعظمتها وكبرياتها وكأنها - رغم
كل عوادي الزمن - تريد أن تؤكد لكل زائر أنها مقر الأمجاد وموطن البطولات ، وأنها
قبل كل شيء ، صند صانعة تاريخ وشاهدة تاريخ ، وأرضها وجدرانها حكايات التاريخ .
وتنقسم أبنية الحصراء - اعتمادا على كتابات المؤرخ الأندلسي الكبير محمد عبد الله
غان - الى جناحين كبيرين : الأول جناح قصاروش الذي يضم قاعة السفراء ، و برج قصاروش
الذي يعلوها ، ^{والثاني} جناح الأسود الذي يتوسطه قاعة الأسود ، نسبة الى اثني عشر
أسدا تحمل نافورة من الرخام الأبيض ، تفضي الى البرواجم ولوحة
من صلبان الخشب .

ولنلق نظرة سريعة على أقسام الحراء الرئيسية

فناء الريحان :

وهو أول ما يرى الزائر ، وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء ، تظللها أشجار الريحان ، وقد تزينت حناياه ببعض الآيات القرآنية والاشعار والدعاء للسلطان ، كما أنه ينتهي بهو صغير جميل يحتوى على مئذنة حليت جوانبه بنقوش رديعة .

بهو السفراء :

يعرف باسم بهو قمارش ، وهو أعظم أقبية الحراء من حيث السعة والارتفاع وهو عبارة عن مستطيل مساحته ١٨ مترا x احدى عشر مترا ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون مترا وقد حفر زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز .

وأروع ما فى بهو قمارش زخارف قبة ، ونقوشها نقوش أصلية رائعة ، أما جدرانها فانها تنكس ثوبا قشيا من جبال الزينة والزخرفة على الرغم من أن ذلك ليس الا تجديدا لنقوشها القديمة قام به الفنانون الاسبان .

وجميع أرجاء المكان يسج بالآيات الشعرية ، والآيات القرآنية ونقشت به سورة " تبارك " كاملة .

فناء الأسود :

هذا الجناح من انشاء سلطان غرناطة محمد الغنى بالله ، وهو أجمل وأشهر أقسام الحراء ، ويحتل بطرازه المشغول ، وقبابه المضلعة وأعدته الرشيقة ، وزخارفه البديعة ، ونافرته الفريدة التى تحملها الأسود أروع أجحة الحراء وأوفرها رواة وسحرا .

وفى وسط الفناء نافرة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافرة يحمل جوفها البرمرى المستدير النسم اثنا عشر اسدا ، صفت على شكل دائرة ، وضحت من الرخام الأبيض . وهى فى مجموعها ، رغم عوامل الزمن ، وبأثير الرياح والأطراف ، لا تبدو من أجل التحف الفنية فى قصر الحمراء ، ولم من الأساطير حيكلت حولها أسوار حول سباعها ، وانصباب الماء من أفواهها .

والفناء أنتم مجسوة من أعمدة الرخام الأبيض الرشيقة ، والنقوش البديعة
التي تأسر السائحين بمنظرها وتناسقها وجمالها .
ويطل على بهو السباح عدة قاعات تعد تحفة فنية رائعة ، بل تكاد تكون أكمل ما فنى
قصر الحمراء كالأجالات وزخرفة ونقوشها ، فهناك قاعة بنى سراج وهي قاعة عظيمة
أرضها بالرخام المرمرى ، وفوق قبة عالية معلقة وفي كلا الجانبين الأيمن والأيسر
عند عرس بديع مزين بزخارف عربية جميلة وفي وسط القاعة نافورة صغيرة في أرضها
بمنزلة الصدا ، لكن مرشد السائحين يزعمون بأنها آثار دماء أسرة بنى سراج التي
أسلمها السلطان في هذه القاعة .

أما قاعة الملوك فقد دخلها عند بديع مثلث الجوانب ، وفيها ثلاث عقود أو حنايا
وفي العقد الأوسط رسمت عدة صور يقال إنها لملوك غرناطة .

وتواجه قاعة بنى سراج ، قاعة تسمى قاعة الأخوين * لوجود قطعتهما
من الرخام كبيرتي الحجم فريبتين ضمن منوشات أرضها ، وتشبه هذه القاعة في رسمها
ونقوشها القاعتين الأخريتين ، وتتقاسم هذه القاعة بمشرف يطل على حى البهازين وعلى
فناء السرويس منظر اللند راخا .

والحمراء واسعة ، وتخصيلاتها كثيرة ، وليس المقصد هنا التعريف بهـ
بكتفى فقط أرد أن أشير إلى أن هذه النقوش الرائعة التي تزين قصر الحمراء الآن -
أو على الأقل في جزء كبير منها - إنما هو تجديد قام به الفنانون الأسبان في العصور
الحديثة مطولين أعادتها إلى صورتها الأولى .

اهتمام الأسبان بالحمراء :

ظلت غرناطة بعد سقوطها على يد الملكين الكاثوليكين سنة ١٤٩٢ م ، مقرا
لاقامة ملوك اسبانيا ، وسحلا لرعايتهم مدة طويلة من الزمن ، ثم بعد ذلك دخلت
في طور من الاعمال والنسيان ، وعاشت الحمراء في صمت رهيب ، سكنتها الهسبام
والخفافيش ، وأبست بين جدرانها مئات الحكايات والأساطير .

وكان للكاتب الأمريكي واشنطن ابرفج ، وكتابه " حكايات الحمراء " الفضل
في لفت أنظار الأسبان والعالم إلى هذا الأثر الخالد ، ومن ثم بدأ الأسبان في

المنافسة به ، وتجديده ، واصلاح ما تهدم من نقوشه وجد رانه .

اقام الاسبان مجسدة من الورش المتخصصة فى النجارة والبياض والزخرفة
لكى تعمل على انتاج ما يحتاجه القصر الكبير من قطع لاصلاح ما يفسد من رسوماته
الأصلية ومنها :-

ورشة لصب لوحات جيرية بشعار بنى نصر " لا غالب الا الله " وكذلك بعض
الرسم الزخرفية والهندسية لى يتم تركيبها فى الأماكن التى تتساقط زخارفها القديمة
ورغم أن العمال لا يحرفون اللغة العربية الا انهم يؤدون أعمالهم بعناية رائعة
ويستخرجون لوحات ، تكاد أن تكون أصلية لدقة النقل والتصوير .

ومنهم ورشة نجارة يعمل بها نجار واحد يعمل فى صناعة الأبواب الخشبية
بنفس الطريقة والرسم التى كانت عليها أبواب الحمراء ، ولقد شاء لى أن التقط له
صورة بجوار باب جديد أبنى فيه من غيره عدة سنوات لى يحل بدلا من أحد أبواب
القصر الأصلية والسورة وان لم تكن واضحة تماما الا انها تظهر قسما وجه الرجل
الى جوار التحفة التى صنعها .

مدرسة يجب أن تهفى :
.....

وجرى ذكر الرجل رفته مع السنيور " رامون أرمنجود " سفير اسبانيا السابق
فى الكويت ودول الخليج قال لى : ان هذا الرجل مدرسة يجب أن تهفى ، وواجبنا
رواجب البلاد العربية ، أن نسعى لى يتعلم عليه بعض الطلاب حتى يتشربوا نفسه
وواصلوا رسالته لأنه لما كان أحد قلة يملكون مهبة الصبر والابداع فى هذا المجال .

متحف الآثار العربية الاسبانية :
.....

من الأخبار السارة والمطجئة التى يحملها هذا المقال الى قرائه والى غيرهم
من العرب الذين قىام اسبانيا ببناء متحف للآثار العربية الاسبانية فى مدينة غرناطة
بجوار الحمراء ولعله ، ان امتح بكامله بعد أكبر متحف للفن الاسلامى فى العالم كله ،
ولم يفتح رسميا حتى الآن ، لأنه لم يستكمل منشأته وأجهزة الأمن به .

ولقد شاء حتى ان أزور هذا المتحف منذ عجرة أعوام مع الاستاذ الدكتور
السيد عبدالعزيز سالم ، استاذ التاريخ الأندلسى بجامعة الاسكندرية ، والاستاذ

الدكتور ابراهيم شبح من تونس مؤيد من قبل الاتحاد العام للمؤرخين العرب
لكى تعين المتحف على أمل أنه كان يمكن افتتاحه مع افتتاح مهرجان الأندلس
الذى تقدم به الاتحاد الى الجهات الاسبانية ثم نكس على عقبه دون أسباب
معقولة مسببا بذلك حرجا شديدا لكل عرس قد يحرف القصة على حقيقتها .

ومنها التقينا بمدير الحرا* والمتحف* السيرر أنطونيو وصحنا فى جولة
فى روع هذا المتحف الرائع الذى سيكون ولا شك أكبر متحف اسلامى فى العالم -
على الأقل من ناحية الحجم .

ملاحظات :

عنونت مقالى بالحرا* تغير جلدها ، ولم يكن ذلك عنوانا صحفيا بقدر ما هو حقيقة
تاريخية أكدت لها لى تلك الرحلة المشار اليها ، وأرتنى كم كان على حق المستشرق
الكبير " اميليو غارثيا غوسيت " يوم قال ان الحرا* قد عاشت لأن أيد اسبانية رقيقة
قد تعهدتها بالتجديد والسلاية . لكن لم يدربخلدى ، أن التغير سيكون
كبيرا ، وخاصة فى الأيام القريبة التالية .

النافورة راحلة :

ليس فى الحرا* أكثر جاذبية من بهو السباح بنا فورته الخلابه التى يحلمها
اثنا عشر أسدا ، ولكم تجمع السائحون حولها يستمعون الى اسطورة الأسود التى
كان يلقى الماء من فيه أحد هم ساعة من النهار ، وأن أحد اليهود قد أستاذن ملوك
اسبانيا فى الحفر اسفلها لكى يتبين سرها ، ويتسبب فى عطلها ^{وتوقف} ~~وتوقف~~ الأسود عن
القاء الماء فى وقت معين من النهار. هذه النافورة ذات التاريخ ، سوف ترحل من هذا
المكان لأنها مهددة بالرطوبة ، ويخشى على رخامها من عوامل المناخ ، ومن ثم لامفر
من ادخالها المتحف المشار اليه وأن تترك عرشها لتستقر عليه أخرى صنعها الاسبان
واستعدوا لكى يحتفلوا فى القريب بفتحها مكان النافورة الأصلية التى سوف تنزوى بسباعها
داخل قاعة تتحكم فيها آلات قياس الحرارة والبرودة والرطوبة . . . الخ .

ولن يقتصر الأمر على النافورة والسباح ، فهناك أيضا بعض الأبواب
الأصلية ، تستعد لتحتل مكانها في متحف غرناطة الحضارى ولتحل محلها
أبواب أخرى من ذات الطراز العرس التى قام بصنعها ذلك الفنان الاسبانى
المغمور فى مبنى منزو داخل قصر الحراء •

والى مقالة أخرى لننسخ المجال أكثر عن الحراء وعن باقى آثار غرناطة •

دكتور / محمد عبد الحميد عيسى
مدرس التاريخ الاندلسى بكلية التربية
جامعة عين شمس